الفصل الثانى

الشريف الرضى فى عصره

١ ـ موجز حياة

ولد الشريف الرضى سنة ٣٥٩ هـ ، ولا خلاف على هذا التاريخ المجمع عليه عند جميع مؤرخيه ، ما عدا المستشرق آدم متز الذى ذكر[١] أنه ولد سنة ٣٦١ هـ ، ولا أدرى عن أى مصدر أخذ . وكان الخليفة العباسى وقت مولده المطيع لله ، والسلطان البويهى بختيار الملقب بعز الدولة بن معز الدولة بن بويه .

واسمه أبو الحسن محمد بن أبى أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى ابن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق عليه السلام . وجعفر الصادق كما هو معروف هو ابن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين ، بن على بن أبى طالب .

وأم الشريف الرضى هى السيدة فاطمة بنت الحسين بن الحسن الناصر صاحب الديلم ، والحسن هذا هو الملقب بالأصم أو الأطروش الذى أقام فى بلاد الديلم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام ، فكان ناشر الدين فى هذه البقعة من الأرض ، وله وقعات كثيرة مع السامانيين .

ووالد الشريف الرضى هو أبو أحمد الحسين ، وقد لقبه بهاء الدولة بن بويه بالطاهر الأوحد ، وكان يتولى نقابة الطالبين ، وإمارة الحج ، والنظر فى المظالم .

وكان عضد الدولة البويهى يخشى والد الشريف ويستعظم أمره ، فلما قدم العراق سلطانًا له قبض عليه سنة ٣٦٩ هـ ، وحمله إلى قلعة بفارس ، فلم يزل

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : لآدم متز ج ١ ص ٤٤٩ .

بها حتى مات عضد الدولة . فأطلق شرف الدولة بن بويه سراحه واستصحبه فى جملة رجاله وقدم به إلى بغداد سنة ٣٧٦ هـ ، حينما انتصر على أخيه صمصام الدولة . وبذا تكون مدة محنته فى الحبس سبع سنين ، وليست (ما يزيد على أربع سنوات) كما جاء عند الدكتور إحسان عباس ، فإن تاريخ استيلاء شرف الدولة على بغداد معروف محدود .

كانت سن الشريف وقت حادثة أبيه عشر سنوات ، وأطلق سراح الوالد حينما كانت سن الشريف فوق السادسة[1] عشرة . وحفظ شاعرنا لشرف الدولة هذا الجميل فمدحه ومدح وزيره سابور بن أردشير ، ومدح الخليفة الطائع الذى وعد بأن ترد إلى الوالد أملاكه المصادرة . وقصيدة الشريف فى مدح شرف الدولة لامية يقول فيها :

هذا أبى والذى أرجو النجاح له ... أدعوه منك طليق الهم والجذل[2]

لولاك ماانفسحت فى العيش همته ... ولا أقر عيون الخيل والخول

جذبت من لهوات الموت مهجته ... وكان يطرف فى الدنيا على وجل

ومن ذلك الحين بدأت علاقات الشريف مع بنى بويه ومع خلفاء العباسيين ، فاتصل بشرف الدولة بن بويه ، وبهاء الدولة بن بويه ، ولكنه كان ناقماً على عضد الدولة لأنه هو الذى اعتقل أباه . وأدرك الشريف من عهد الخليفة المطيع أربع سنوات حيث كان صاحبنا فى الرابعة من عمره ، وأدرك عهد الخليفة الطائع كله ويقرب من ثمانية عشر عاماً ، كما أدرك من عهد الخليفة القادر خمسة وعشرين عاماً .

وحاول الشريف أن يتصل بالخليفة الطائع فمدحه بشعر يتمنى فيه لقاءه ، يقول فيه :

---

(١) ذكر الدكتور إحسان عباس أن سنه كانت تقارب الخامسة عشرة وقت إطلاق أبيه . وهذا خطأ ، ولعله استند إلى أن عضد الدولة مات وعمر الشريف أربع عشرة سنة ، ولكنه لم يطلق سراحه بموت عضد الدولة ، وإنما أطلق باستيلاء شرف الدولة على بغداد .

(٢) ديوان الشريف الرضى ، وانظر عبقرية الشريف الرضى لزكى مبارك جـ ١ ص ١٤٠ .

غرضي بمدحك أن يطاوعني عوج بأيامي ويعتدل
وأقوم بين يديك مرتجلا لا العي يقطعني ولا الوجل

أو يقول فيه أيضًا :

مولاي : من لي أن أراك وكيف لي بحضور دارك والعدو بمعزل

ويعده الطائع ثم لا ينجز . . . فيتحرق قلب الشاعر قائلا :

أعيذ مجدك أن أبقى على طمع وأن تكون عطاياي المواعيد
وأن أعيش بعيدا من لقائكمُ ظمآن قلب ، وذاك الورد مورود ؟

وما تكاد تتحقق أمنيته بلقاء الخليفة الطائع حتى ينكب الخليفة فيُقبض عليه من رجال بهاء الدولة الديلم ، ويجذب من سريره ، وتنهب أمواله وخزائنه ، ويخلع من الخلافة ، ويشهد شاعرنا هذه الحادثة المهينة للخلافة والخليفة ، فقد كان حاضراً مجلس الطائع ، فيفر هاربًا إلى دجلة ، وكان أول هارب ، ويصف هذه الواقعة بقصيدة يقول فيها :

ومنظر كان بالسراء يضحكني يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أغتر بالسلطان ثانية قد ضل ولاّج أبواب السلاطين!!

ويتصل بالخليفة القادر بعد ذلك فيهنئه بالخلافة سنة ٣٨١ هـ ، بقصيدة يقول فيها :

شرف الخلافة يا بني العباس اليوم جدده أبو العباس

ثم يمدحه سنة ٣٨٢ هـ ، ولكنه ينسى أنه أمام خليفة - وإن كان ابن عمه - فيقول مُتباهيًا متفاخراً :

عطفاً أمير المؤمنين ! فإننا في دوحة العلياء لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبدا ، كلانا فى المعالى معرق
إلا الخلافة ميزتك ... فإننى أنا عاطل منها ، وأنت مطوق !

ويقال إن الخليفة القادر قال له حين بلغ هذا البيت : على رغم أنف الشريف !

وكان أبو إسحاق الصابى صديقاً حميماً له ، وبينهما مكاتبات ومساجلات بالشعر . وتفرس فيه الصابى ملامح المجد ، وشام فيه مخايل الخلافة ، وبشره بأنه سيكون خليفة ، قائلا له :

أبا حسن ! لى فى الرجال فراسة تعودت منها أن تقول فتصدقا
وقد خبرتنى عنك أنك ماجد سترقى إلى العلياء أبعد مرتقى
فوفيتك التعظيم قبل أوانه وقلتُ : أطال الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبح بها إلى أن أرى إظهارها لى مطلقاً!

وقد أنكر الصابى هذه الأبيات لما شاعت ، لأنه خاف على نفسه من الخليفة !

وكانت صلة الشريف ببهاء الدولة البويهى قوية متينة ، وكان يمدحه ويرسل القصائد إليه ، ولا ينشدها بين يديه كما كان يفعل مع الخلفاء ، وانتهز الدساسون هذه الفرصة فسعوا بالشاعر عند بهاء الدولة ، واتهموه بالتكبر والتعالى عليه ، فكتب إلى بهاء الدولة يقول :

جنانى شجاع إن مَدحتُ . وإنما لسانى إن سيم النشيد جبان !
وما ضر قوالا أطاع جنانه إذا خانه عند الملوك لسان ؟

وظل الشريف يمدح بهاء الدولة وعلى أطيب العلائق معه ما يقرب من ربع قرن ، وهو زمان ليس بالقصير . فأتيح لشاعرنا أن يرى مواهب هذا السلطان البويهى على حقيقتها ، وأن يبرزها فى صدق وحسن تصوير . ولم تمنع فارسية بهاء الدولة

أن ينصفه الشريف وأن يذكر أمجاد الفرس القديمة التى انصهرت فى بوتقة العروبة والإسلام . والشريف الرضى لا يعرف العصبية فى تقديره للرجال ، فقد مدح الصابى الكاتب الكبير وهو من غير ملة الإسلام . ورثاه حين مات سنة ٣٨٤ هـ بالدالية المشهورة التى مطلعها :

أرأيت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادى ؟

وقد أكبر الناس الشريف لأنه وفى أجمل الوفاء لرجل من مذهب الصابئة . .

ونظم الشريف الشعر وهو مجاوز للعاشرة بقليل كما ذكر الثعالبى ، وعنه نقل بقية مترجمى حياته . ولهذا لا نعد من الوهم — كما يذهب الدكتور إحسان عباس — أن يكون أبو سعيد السيرافى النحوى من أساتذته ؛ لأنه لقنه النحو وهو دون العاشرة . « فابن جنى » أستاذ الشريف الرضى يؤكد هذا ويقول إنه (حضر إلى ابن السيرافى النحوى وهو طفل جداً لم يبلغ عمره عشر سنين ، فلقنه النحو) . وعن ابن جنى نقل ابن خلكان المؤرخ ، وابن العماد الحنبلى صاحب شذرات الذهب وغيرهما ؛ فلا حاجة للإنكار ، ولا موضع للغرابة ؛ لأن الشريف كان شديد الذكاء . وإذا ذهبنا مع الدكتور إحسان عباس إلى أن المراد هو ابن أبى سعيد السيرافى ، لا أبو سعيد نفسه ، فهل يحل هذا القضية وينفى تعلمه النحو وهو دون العاشرة ؟

ويمتاز الشريف الرضى بشعره ونثره ، وبمكانه فى الكشف عن مجازات القرآن والحديث النبوى . فهو صاحب فضل سابق فى التأصيل لمجازات القرآن الكريم واستعاراته ، بعد اللمع البيانية الخاطفة التى جاء بها الجاحظ وابن قتيبة . أما مجاز القرآن لأبى عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩ هـ فليس كتاباً فى « البيان » بمفهومه الفنى الاستعارى ، ولكنه تفسير لألفاظ القرآن و « جواز » إلى بلوغ معانيها . . .

ومؤلفات الشريف الرضى بما فى ذلك « نهج البلاغة » للإمام على ، وديوانه الضخم ، ورسائله وخاصة ما دار بينه وبين الصابى ، وأمثاله ، سيأتى الحديث عنها فى موضعها من كتابنا .

أما وفاته فلا خلاف أنها كانت فى سنة ٤٠٦ هـ ، وتجمع على ذلك كل المصادر التى كتبت عنه[١] ، إلا ما جاء فى أحد الأصول الخطية لشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد من أنه توفى سنة ٤٠٤ هـ ، (سنة أربع وأربعمائة). ولم يفطن صديقنا المحقق الفاضل الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم إلى هذا فى طبعته الجيدة المحققة لشرح نهج[٢] البلاغة . وقد تنبه لهذا الأستاذ المحقق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد فى مقدمته للجزء الأول من ديوان الشريف الرضى[٣] ، فصوبه وعلق عليه بأنه لم يذكر فى وفاة الرضى إلا قول واحد .

ولم يختلف صديقنا العلامة الكبير الأستاذ عبد الحسين أحمد الأمينى النجفى صاحب موسوعة (الغدير) إلا فى اليوم لا فى السنة ، وعنده أن الوفاة يوم الأحد ٦ محرم سنة ٤٠٦ هـ ، (أما ما فى شذرات الذهب من أنه توفى بكرة الخميس فهو من خطأ النساخ . . .) وتؤكد لنا مرثية الشاعر مهيار الديلمى — وكان معاصراً للرضى — أن الوفاة كانت (يوم الأحد ، لست خلون من المحرم سنة ست وأربعمائة)[٤] .

وقد دفن الرضى بداره بمسجد الأنباريين بالكرخ من بغداد ، ثم نقل إلى كربلاء ليدفن بجانب جده الحسين عليه السلام كأبيه وأخيه بعد ذلك ، كما ذكر صاحب « عمدة الطالب » وعنه نقل صاحب الغدير .

أما ما ذكره مؤلف « مناهل الأدب العربى » جزء ١٤ ص ١١ من أنه (نقله أخوه المرتضى إلى مشهد موسى الكاظم) فوهم كبير . . . والصحيح أن المرتضى

---

(١) جاء فى دائرة المعارف ج ٤ لمحمد فريد وجدى أنه توفى سنة ٤٠٤ هـ ، وهو وهم منقول عن شرح نهج البلاغة . وقد صححه المرحوم فريد وجدى فى الجزء ٩ من الدائرة .

(٢) شرح نهج البلاغة : طبعة الحلبى سنة ١٩٥٩ ، القاهرة — ج ١ ص ٤٠ .

(٣) ديوان الشريف الرضى — طبع دار إحياء الكتب العربية ج ١ ص ١٩ .

(٤) ديوان مهيار طبع دار الكتب والوثائق القومية ج ٣ ص ٣٦٦ .

ذهب يوم وفاة أخيه الشريف الرضى إلى مشهد موسى الكاظم حتى لا يحضر جنازته ، لأن الحزن بلغ منه مبلغاً جعله لا يستطيع أن ينظر إلى تابوته ودفنه[١]. ومضى فخر الملك الوزير بنفسه آخر النهار إلى المرتضى فى منعزله بالمشهد الكاظمى فألزمه بالعود إلى[٢] داره . .

بقى أن نقول إن الشريف الرضى توفى سنة ٤٠٦ هـ ، عن سبعة وأربعين عاماً ، أما ما ذكره أخونا الفاضل الدكتور إحسان عباس من أنه توفى عن قرابة[٣] اثنين وأربعين عاما ، فهو خطأ فى الحساب نستجيز أن نصححه .

٢ ـ شيوخ وتلاميذ

نستطيع أن نعرف أساتذة الرضى وشيوخه منه هو نفسه حين ينقل عنهم فى كتبه أو يشير إليهم بالأخذ عنهم والرواية لهم ، وخاصة فى كتابيه : (تلخيص البيان فى مجازات القرآن) و (المجازات النبوية) . وهذا مصدر من مصادر التعرف إلى شيوخه . وأحياناً نقرأ ترجمة أو خبراً عن رجل معاصر للشريف الرضى فنجد أنه تتلمذ عليه وأخذ منه . وأحياناً نجد فى ديوانه إشارة إلى أنه رثى بهذه القصيدة أستاذه فلاناً . وكان أول من اهتم بتتبع شيوخ الشريف الرضى الأستاذ العلامة الشيخ عبد الحسين أحمد الأمينى النجفى صاحب (الغدير) ، فقد أوردهم وذكر مصادر ورودهم ، ولكنه لم يترجم لهم ، ولم يذكر إلا القليل من وفياتهم[٤]. وبلغت عدتهم عنده أربعة عشر أستاذاً . وحين يسر الله لى أن أحقق «تلخيص البيان» للشريف الرضى وأن أقدم له مقدمة ودراسة تحليلية طويلة ، أوردت أساتذة الشريف واحداً واحداً ، وترجمت لكل منهم ترجمة

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان : طبع بولاق جـ ٢ ص ٤ .

(٢) الغدير جـ ٤ ص ١٨٥ من طبعة النجف ، وشرح نهج البلاغة جـ ١ ص ٤٠ طبعة عيسى الحلبى .

(٣) الشريف الرضى للدكتور إحسان عباس . بيروت سنة ١٩٥٩ ص ١٤٤ .

(٤) الغدير جـ ٤ ص ١٦٢ .

شافية دقيقة مع ذكر سنى وفياتهم جميعًا . وقد بلغت عدتهم عندى خمسة عشر أستاذاً بزيادة واحد على ما ذكره صاحب الغدير . وقد أفادنا الباحث الدكتور إحسان عباس شيخًا سادس عشر للشريف الرضى هو أبو عبد الله بن الإمام المنصورى وهو لغوى من بنى هاشم لم نهتد إلى أثارة من آثاره ، أو شيء من أخباره . ورثاه تلميذه الرضى بقصيدة مطلعها :

قف موقف الشك لا يأس ولا طمع وغالط العيش لا صبر ولا جزع

ونلاحظ أن شاعرنا الشريف يذكر أساتذته دائمًا بالخير فى كتبه ويترحم عليهم ، أو يمدحهم فى ديوانه ، أو يدعو لهم بالخير والتوفيق .

ونحن نذكر هنا هؤلاء الأساتذة ونترجم لهم بإيجاز تعويلا على ما بين أيدينا من مصادر كتاريخ بغداد ، ومعجم الأدباء ، والمنتظم لابن الجوزى ، ووفيات الأعيان ، وبغية الوعاة ، والنجوم الزاهرة ، والكامل لابن الأثير ، والأعلام لخير الدين الزركلى وغيرها :

١ — أبو سعيد الحسن بن عبد الله المرزبان النحوى المعروف بالسيرافى . وقد تتلمذ عليه فى النحو وهو طفل دون العاشرة ، كما ذكر أستاذه ابن جنى فى أحد مجاميعه وعنه نقل المؤرخ ابن خلكان . وقد بينا قبل هذا إمكان تلقى الشريف علم النحو وهو دون العاشرة فقد كان آية فى الذكاء ، ولا يمنع العقل ولا الواقع من قبول ذلك . وكان السيرافى من أعلم الناس بمذهب البصريين فى النحو ؛ أما فى الفقه فكان ينتحل مذهب أهل العراق . ولقد تعفف عن الكسب إلا من عمل يده ، فاتخذ نسخ الكتب وسيلة إلى ذلك ، وتوفى سنة ٣٦٨ هـ .

٢ — أبو الفتح عثمان بن جنى الموصلى ، وكان إمامًا فى اللغة والنحو ، وله شعر ذكر ياقوت بعضًا منه ، وابن جنى راوية المتنبى وشارح شعره ، وكان المتنبى يقول : ابن جنى أعرف بشعرى منى ! ولما مات المتنبى رثاه ابن جنى بقصيدة مطلعها :

غاض القريض وأذوت نضرة الأدب وصوحت بعد رى دوحة الكتب

وقد صحب ابن جنى أبا على الفارسى النحوى أربعين سنة ، فلما مات الفارسى تصدر ابن جنى فى مجلسه ببغداد . ولما توفى ابن جنى سنة ٣٩٢ هـ ، رثاه تلميذه الشريف الرضى بقصيدة قافية محكمة النسج . ولم يكتف بالإشارة إليه فى مصنفاته ، بل مدحه شعراً ، نذكر منه قوله فى قصيدة :

فدى لأبى الفتح الأفاضل ! إنه يبر عليهم إن أرم وقالا !
إذا جرت الآداب جاء إمامها قريعا ، وجاء الطالبون إفالا
فتى مستعاد القول حسنا ولم يكن يقول محالا ، أو يحيل مقالا

وابن جنى هو صاحب كتاب « الخصائص » المشهور فى اللغة . وقد شرح القصيدة الرائية الرائعة التى قالها الشريف فى رثاء إبراهيم بن ناصر الدولة الحمدانى ومطلعها :

ألقى السلاح ربيعة بن نزار أودى الردى بقريعك المغوار

٣ — أبو على الحسن بن أحمد الفارسى ، وقد ذكره الشريف فى كتابه « المجازات النبوية » ، وكان يسمع من شيخه ابن جنى الذى كان ينشده عن أبى على الفارسى . وأبو على الفارسى إمام فى اللغة وفقهها ، وقد زار كثيراً من البلاد ، ودخل بغداد ، واتصل فى فارس بعضد الدولة بن بويه ، وصنف له كتاب « الإيضاح » فى قواعد العربية ، ووفد على سيف الدولة بحلب وأقام عنده مدة ، وتوفى سنة ٣٧٧ هـ .

٤ — القاضى عبد الجبار المعتزلى ، وقد ذكره الشريف فى كتابيه : تلخيص البيان ، والمجازات النبوية . وكان شيخ المعتزلة فى عصره ، ويلقبونه بقاضى القضاة ، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره . وقد قرأ الشريف عليه كتابيه : « تقريب الأصول » و « شرح الأصول الخمسة » وتوفى بمدينة الرى سنة ٤١٥ هـ ولم يذكره ابن الجوزى فى وفيات كتابه ، كما أغفل ذكره المؤرخان ابن الأثير

وابن كثير فى تاريخهما . أما صاحب شذرات الذهب فقد ذكره .

٥ – أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمى ، وكان شيخه فى الفقه . ويذكره الشريف فى « المجازات النبوية » ، كما يشير إليه فى « تلخيص البيان » . والخوارزمى هذا – كما يقول عنه الخطيب البغدادى – هو شيخ أهل الرأى وفقيههم ، وقد انتهت إليه الرياسة والفتوى فى مذهب الإمام أبى حنيفة . وقد قيل فيه : ما شاهد الناس مثله فى حسن الفتوى ، والإصابة فيها ، وحسن التدريس . وقد دعى إلى ولاية الحكم غير مرة فأبى . وتوفى ٤٠٣ هـ .

٦ – أبو القاسم عيسى بن على بن عيسى بن داود بن الجراح . وقد ذكره الشريف فى « المجازات النبوية » فى مجاز قول النبى عليه السلام : (الخلق عيال الله عز وجل ، فأحبهم إليه أنفعهم لعياله) . وهو ممن ترجم لهم ابن الجوزى ، والخطيب البغدادى . وكان يميل فى حياته إلى التجمل والتجلد على الرغم من ضيق عيشه . ويرى مع الشاعر على بن الجهم أنه لا عار إن زالت عن المرء نعمة ، ولكن العار أن يزول تجمله . وله فى ذلك طرفة تروى . كما بلغ من إيمانه بالعلم أنه رأى فيه الخلود ويدل على هذا قوله :

رب ميت قد صار بالعلم حيا ومبقى قد حاز جهلا وغيا
فاقتنوا العلم كى تنالوا خلودا لا تعدوا الحياة فى الجهل شيا

وتوفى ابن الجراح سنة ٣٩١ هـ ، ودفن فى داره ببغداد .

٧ – عمر بن إبراهيم بن أحمد الكنانى . وقد ذكره الشريف فى « المجازات النبوية » . وكان الكنانى من رجال الحديث ، وقيل إنه كان ثقة فيه . وذكر الخطيب البغدادى أنه توفى سنة ٣٩٠ هـ والكنانى تذكر فى بعض المصادر بالتاء أولا والنون ثانيًا ، ويذكرها صاحب الغدير بنونين .

٨ – إبراهيم بن أحمد الطبرى الفقيه المالكى ، وكنيته أبو إسحاق . وهو صاحب قصة الدار التى منحها شاعرنا ليقيم فيها . فقد ذكرها المؤرخ ابن الجوزى ، ونقلها عنه شارح نهج البلاغة ، ولا بأس أن نوردها هنا لعميق دلالتها :

(. . . وعليه قرأ الرضى القرآن ، فقال له يومًا : أيها الشريف : أين مقامك ؟ فقال : فى دار أبى بباب المحول . فقال له : مثلك لا يقيم بدار أبيه . ونحله الدار التى بالبركة فى الكرخ . فامتنع الرضى وقال : لم أقبل من غير أبى قط شيئًا ! فقال له : حقى عليك أعظم ، لأنى حفظتك كتاب الله ! فقبلها) . ولم يذكره الشريف الرضى فى واحد من كتابيه فى مجازات القرآن والحديث . ولكن ابن الجوزى ذكره فى وفيات سنة ٣٩٣ هـ . ودلنا بحكاية الدار هذه على أنه شيخه ومحفظه القرآن .

٩ — أبو الحسن على بن عيسى الربعى . ذكره الشريف فى المجازات النبوية ، وهو أحد أئمة النحويين وحذاقهم ، وقد لازم أبا على الفارسى عشر سنين ، ثم رجع إلى بغداد حيث مات بها سنة ٤٢٠ هـ .

١٠ — سهل بن أحمد الديباجى ، وقد سها عنه صاحب الغدير فلم يذكره فى ثبت أساتذة الشريف . ولكن الشريف يذكره فى المجازات النبوية . ووجدت له فى « لسان الميزان » لابن حجر العسقلانى تعريفًا وجيزاً . وكان الديباجى من غلاة الرافضة ، وتوفى سنة ٣٨٥ هـ .

١١ — الشيخ المفيد أبو عبد الله بن المعلم محمد بن النعمان . وكان من أهل التحقيق ، وانتهت إليه رياسة الشيعة الإمامية فى وقته ، وقد صنف كثيراً من الكتب فى الفقه والأصول وعلم الكلام . وكان الشيخ المفيد أستاذاً للشريفين : المرتضى ، والرضى ، وتوفى ببغداد سنة ٤١٣ هـ

١٢ — أبو عبد الله محمد بن عمران المرزبانى الأديب الإخبارى المؤرخ ، وهو صاحب « معجم الشعراء » المشهور ، ووصفه ابن خلكان بأنه كان ثقة فى الحديث ، مائلا إلى التشيع . وبلغ من اهتمام المرزبانى بالشعر والشعراء أنه أول من جمع ديوان يزيد بن معاوية واعتنى به — على ميله إلى التشيع — فرفع بهذا الصنيع درجة العلم فوق حدود التعصب . . .

وتوفى سنة ٣٨٤ هـ ، وقيل سنة ٣٧٨ هـ ، والأول أصح ، على ما يراه ابن خلكان .

١٣ ــ أبو محمد عبد الله الأسدى الأكفانى . وقد ذكره صاحب الغدير فى ثبت شيوخ الشريف ، ولم أجد ذلك فى مصادرى . وقد تولى الأكفانى قضاء مدينة المنصور ، ثم ولى قضاء باب الطاق ، ثم جمع له قضاء بغداد سنة ٣٩٦ هـ ، ويثنى عليه غير واحد من رجال الحديث ويذكرونه ذكراً جميلا . وكان كريم النفس كثير الأفضال على أهل العلم ، وتوفى سنة ٤٠٥ هـ ، كما فى « المنتظم » .

١٤ ــ عبد الرحيم بن محمد المعروف بابن نباتة الفارقى ، الخطيب المشهور ، وهو صاحب ديوان الخطب المنبرية المعروف . وكان مبرزاً فى الأدب واللغة . وأجمعوا على أن خطبه المنبرية لم يعمل مثلها فى موضوعها ، وكانت تدور حول الجهاد فى حروب العرب مع الروم . وقد التقى هو والمتنبى فى خدمة سيف الدولة ، فاجتمع بهما الشعر والنثر ، وتوفى بحلب سنة ٣٧٤ هـ ، وهو غير ابن نباتة السعدى الشاعر الذى كان معاصراً له وتوفى سنة ٤٠٥ ، وغير ابن نباتة المصرى الذى ولد ومات بالقاهرة سنة ٧٦٨ هـ ، وتوفى ابن نباتة الفارقى سنة ٣٧٤ هـ[1] .

١٥ ــ أبو محمد الشيخ الأقدم هارون بن موسى التلعكبرى . ولم أهتد إلى مصدره . وقد ذكره صاحب الغدير وذكر أنه توفى سنة ٣٨٥ هـ .

١٦ ــ أبو عبد الله بن الإمام المنصورى ، وهو لغوى من بنى هاشم . وقد ذكره الدكتور إحسان عباس كما سلف القول ، ورثاه الشريف بقصيدة عينية وأخرى نونية . ولم أهتد إلى مصدر لترجمته . ومن هذا الثبت نعرف أن الشريف الرضى كان واسع العقل ، رحب الصدر ، حر الفكر . فلم يتعصب لرجال مذهب على رجال مذهب آخر . لقد كان من شيوخه الشيعى ، والسنى ، والمعتزلى ، والرافضى ، والشافعى ، والحنفى ، والمالكى ، فلم يتحرج أن يأخذ العلم من أى مصدر . وقد رأينا أن أبا إسحاق الطبرى الذى منحه داره ليقيم فيها ، كان فقيهاً سنيًّا على مذهب الإمام مالك . . .

---

(١) كما فى معجم المطبوعات العربية ، والأعلام للزركلى . وذكر جرجى زيدان فى تاريخه جـ ٢ ص ٢٥٧ أنه توفى سنة ٣٨٤ هـ أما صاحب الغدير فذكر أنه توفى سنة ٣٩٤ هـ .

هؤلاء هم أساتذة الشريف الرضى ، وهم يمثلون تيارات فكرية ومدارس مختلفة ، وأكثرهم مشهور ملحوظ المكانة فى زمانه . أما تلاميذه فقد ذكر العلامة الأمينى النجفى فى « الغدير » بضعة منهم ليسوا معروفين لدينا لأنهم من رجال الشيعة ولا تقع مصادرهم بين أيدينا ، وإن كان على رأسهم شيخ الطائفة الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠ هـ ، وصاحب تفسير القرآن المسمى « التبيان » كما أنه صاحب كتابى « الاستبصار » و « التهذيب » وهما من الكتب الأربعة المعتمدة عند الشيعة الإمامية فى الأحاديث والأخبار . وكان الشاعر مهيار الديلمى تلميذه وعليه تخرج فى الشعر كما فى[1] وفيات الأعيان ، وإن كان صاحب « الغدير » لم يذكره فى ثبته عن تلاميذ الشريف . . . فهو من إضافاتنا . .

٣ ـ الشاعر الطموح

نلاحظ فرقاً فى الشخصية ومطامح النفس بين الشاعر الشريف الرضى ، وأخيه الشاعر العالم الشريف المرتضى . فالمرتضى اكتفى من حظه فى الدنيا بالعلم يشغل نفسه به ، وبالزهد يروض نفسه عليه ، ونقّى نفسه من مشاغل الحياة ومطامعها التى تندق لها أعناق الرجال . وصرف نفسه جملة عن بهرجة السلطان ، ومقامات الحكام . أما الشريف الرضى فكان قلق النفس ، كثير الطموح ، بعيد الطماعية . وطالما حدثته نفسه أن يكون الخليفة القائم على أمر المسلمين ، لأنه يرى نفسه أحق بالخلافة من الجالسين على عرشها . فهو ابن عم الخلفاء ، ولكنه ـ فى نظر نفسه ـ أحقهم بالخلافة وأجدرهم بها ، وخاصة بعد أن هان أمر الخلفاء وأصبحوا لعبة فى يد الأمراء من الأتراك والديلم . ويفصح لنا شعر الشريف الرضى فى أكثر قصائده عن هذا النزوع والحنين الطويل العميق إلى نيل الخلافة واستحقاقه لها وهمه فى سبيلها . فتارة نراه يقول :

---

(١) وفيات الأعيان : ج ٢ ص ١٩٥ طبعة بولاق .

ما أنا للعلياء إن لم يكن ... من ولدى ما كان من والدى
ولا مشت بى الخيل إن لم أطأ ... سريرَ هذا الأصيد الماجد

وأخرى نسمعه يَهْدر قائلا :

لا هَمَّ قلبى بركوب العلا ... يوماً ولا بلَّت يدى بالسماحْ
إن لم أنلها باشتراط كما ... شئتُ على بيض الظبا واقتراح
أفوز منها باللباب الذى ... يغنى الأمانى نيله والصراح
لا بد أن أركبها صعبةً ... وقاحة تحت غلامٍ وقاح ..

وثالثة نسمعه يزمجر بهذه الأبيات ويعنى بها نفسه :

فواعجبا مما يظن محمد ... وللظنُّ فى بعض المواطن غدَّار
يقدِّر أن الملك طوع يمينه ... ومن دون ما يرجو المقدِّرُ أقدار
لئن هو أعنى للخلافة لمة ... لها طرر فوق الجبين وأطرار
ورام العلا بالشَّعر والشِّعر دائبا ... ففى الناس شُعْرٌ خاملون وشُعَّار
وإنى أرى زندا تواتر قدحه ... ويوشك يوماً أن يكون له نار!

وتذهب به تخيلاته وتوهماته للخلافة أبعد من هذا ، فيقول مخاطبًا نفسه وقد توهم أنه صار أمير المؤمنين :

هذا أمير المومنين محمد ... كرمت مغارسه وطاب المولد
أو ما كفاك بأن أمك فاطم ... وأبوك حيدرة ، وجدك أحمد ؟
يمسى ومنزل ضيفه لا يُجتوى ... كرما ، وبيت نضاره لا يُقلد[1]

(١) لا « يقلد » أى لا يغلق . ومنه سمى المفتاح إقليدا .

ويظل شاعرنا الطموح منتظراً للخلافة مترقبًا مجيئها إليه ، ولعله كان ينتظر أن تأتيه الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها ؛ فيقول :

قالوا انتظرها وإن عزت مطالبها ... هل يُنظِر القدر الجارى فأنتظر ؟!
ألقى المطامع مبثوثا حبائلها ... للرزق ، والرزق لا الدانى ولا العثر

ثم يقول من قصيدة أخرى :

وقالوا انتظرها على بطئها ... فَمَن ضامن العمر المنتظرْ ؟
وهل نافعى يوم أقضى صدى ... إذا صاب وادى قومى المطر ؟
فإن لم يكن فرج فى الحياة ... فكم فرج فى انقضاء العمر !

ولكنا نرى اليأس وانقطاع الأمل يغشى هذه الأبيات الأخيرة !

ويعود فينتعش الأمل فى نفسه ، فيطلب الخلافة بحد السيف لا بالقول والخطب ؛ فيقول :

سأخطبها بحد السيف فعلا ... إذا لم يُغن قول أو خطاب
وآخذها وإن رغمت أنوف ... مغالبةً وإن ذلت رقاب !
وإن مُقام مثلى فى الأعادى ... مقامُ البدر تنبحه الكلاب
رموني بالعيوب ملفقاتٍ ... وقد علموا بأنى لا أُعاب..!

ولم تكن أمنيات الشريف الرضى ونوازعه للخلافة مستورة أو خافية على أحد ، فقد عرفها كل المعاصرين له ، والمحيطين به ، والطائفين حوله ، وبلغت حتى مسامع الخليفة العباسى نفسه ، وصارت — أستغفر الله — موضوعًا للتندر ، فما رواه الصفدى فى[1] « الوافى بالوفيات » أن الرضى كان جالسًا يومًا بين يدى الخليفة القادر ، فأخذ يعبث بذقنه ويرفعها إلى أنفه ! فقال له الخليفة : كأنك تشم فيها رائحة الخلافة ؟ ! فقال : لا والله ! رائحة النبوة ! وقد يكون

(١) الوافى للصفدى ج ٢ ص ٣٧٦ طبع إستنبول .

فى هذا الكلام اجتراء على جلال الخلافة ومقام النبوة ، مما جعل الصفدى يستبعد وقوع مثل هذا . . .

وتجسدت فكرة الخلافة فى نفس الشريف الرضى ، ولم يتوهم نفسه خليفة جالساً على عرش الخلافة وحسب ، بل تصور أن الخليفة العباسى يحسده ، والحاسد لا يحسد إلا من هو فوقه مجداً وعظمة ، فيقول :

يقر بفضلى كل باد وحاضر ويحسدنى هذا العظيم المحجب

وقد وجد الشريف الرضى وهو فى معمعان أمانيه وأحلامه بالخلافة من يزين له طلبها ، ويمنيه بقرب حلولها . نعم ! وجد « الصابى » رئيس ديوان الإنشاء والكاتب الأول للخليفة وللسلطان البويهى يتنبأ له بالخلافة ، ويتفرس فى وجهه ملامح الخليفة المنتظر ، ويتوقع له أن يكون من عظماء الرجال ، بل أعظم رجل فى الأمة العربية . ويقرر له إضمار لفظة الخلافة — مخافة أعين الوشاة — إلى أن تحققها الأيام بالفعل ، ويطلب منه أن يذكر له هذه البشارة حين ينجزها له الزمان وأن يستوجب بها الحق عليه ، ويسأله أن يحفظ له أولاده وأهله إذا ما اطمأن جنبه فى مرقد الأيام ، فيقول له من قصيدة :

أبا حسن ! لى فى الرجال فراسة تعودت منها أن تقول فتصدقا
وقد خبرتنى عنك أنك ماجد سترقى إلى العلياء أبعد مرتقى
فوفيتك التعظيم قبل أوانه وقلت : أطال الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبح بها إلى أن أرى إظهارها لى مطلقا
فإن عشت أو إن مت فاذكر بشارتى وأوجب بها حقًّا عليك محققا !
وكن لى فى الأولاد والأهل حافظاً إذا ما اطمأن الجنب فى مضجع النقا

ولا يتلقى الشريف الرضى هذه الفراسة والبشارة بالصمت والثناء الساكت للشخص المتربص المتوقع ، ولكنه يرد عليها ، وعلى صاحبها الصابى ، بقصيدة طويلة يعد فيها الرجل بالخير ومشاطرة العز ، ويؤكد له أنه سيجعله — متى صحت

الفراسة — فى مأمن من غدرات الزمان ، فيقول متخيلا ومسرفًا فى لذاذات الخيال :

لئن برقت منى مخايل عارض ... لعينيك تقضى أن يجود ويغدقا
فليس بساقٍ قبل ربعك مربعاً ... وليس براق قبل جدك مرتقى
وإن صدقت منه الليالى مخيلة ... تكن بجديد الماء أول من سقى
ويغدو لمن يروى جنابك مرويا ... زلالا ، وللأعداء دونك مصعقا

ويستمر فى الأمانى والوعود حتى يبلغ قوله :

فإن راشنى دهرى أكن لك بازيا ... يسرك محصورا ، ويرضيك مطلقا
أشاطرك العز الذى أستفيده ... بصفقة راض إن غنيت وأملقا
فتذهب بالشطر الذى كله غنى ... وأذهب بالشطر الذى كله شقا ..
وتأخذ منه ما أنامَ وما حلا ... وآخذ منه ما أمرَّ وأرَّقا
فغيرى إما طار غادر صحبه ... دُوين المعالى واقعين وحلقا
فإن تسلف التبجيل قبل أوانه ... أعضك به وجها من الود مونقا
وإن تعطنى الإعظام قولا فإننى ... سأُعطيك فعلا منه أذكى وأعبقا!!

لم تعد بعد هذا مطامح الشريف الرضى فى الخلافة خافية على أحد ، فهى موضوع الحديث على ألسن الناس ، وموضوع الحديث فى الرسائل والقصائد ، وموضوع الكلام حتى فى الرثاء ، فحين مات الشريف الرضى سنة ٤٠٦ هـ ، نرى الشاعر الكبير الطويل النفس « مهيار الديلمى » يرثيه بقصيدة سائرة مشهورة مطلعها :

أقريش : لا لفم أراك ولا يد ... فتواكلى ! غاض النَّدى وخلا الندى!

فيشير إلى أحقية الشريف بالإمامة قائلا :

عادت أراكة هاشم من بعده خورا لفأس الحاطب المتوقد
فجعت بمعجز آية مشهودة ولرب آيات لها لم تشهد !
كانت إذا هى فى الإمامة نوزعت ثم ادعتْ بك حقها لم تجحد
رضى الموافق والمخالف رغبة بك، واقتدى الغاوى برأى المرشد
تبعتك عاقدة عليك أمورها وعُرى تميمك بعدُ لما تعقد !
ورآك طفلا شيبها وكهولها فتزحزحوا لك من مكان السيد

ولما اتسعت آمال الرضى هذا المتسع البعيد رأينا الدنيا فى العراق على سعته تضيق به ، فهو لا يطيق العيش فى بغداد ، وتراوده فكرة الهجرة منه فيقول فى مدح الوزير أبى منصور بن صالح :

ولولاه ما قامت ببغداد ناقتى ولا كنت إلا لاحقا بالمقطم !

ثم يقول مخاطبًا الخليفة حين كان يتمنى لقاءه :

ولولا ما أنلت مشت برحلى نقيبُ الخف حليتها الكلوم

وعجيب هذا الاتجاه بالهجرة إلى « المقطم » أى إلى مصر التى يمثلها هذا الجبل! ولكن لا عجب إذا عرفنا أن الدولة الفاطمية كانت فى ذلك الحين بمصر ، وأن هوى الشريف الرضى كان مع هذه الدولة لأنها أقرب إليه من الدولة العباسية ، فهو علوى ، ونحن نعرف ما بين العباسيين والعلويين من صراع انتهى إلى مصارع كثير من الطالبيين ومقاتلهم التى تفتتت لها الأكباد .

وطالما صرح الشريف الرضى بعزمه على مغادرة بغداد بما فيها من مهازل العباسيين إلى مصر التى له فيها الخليفة العلوى الذى يلتف عرقه بعرقه عن طريق على والنبى عليه السلام .

ولقد بلغت الخليفة العباسى القادر تلك الأبيات التى قالها الشريف الرضى يحن فيها إلى الخليفة العلوى الفاطمى بمصر وينوى الذهاب إليه رفضًا لإقامته

على الهوان فى بغداد والتى يقول فيها :

ما مقامى على الهوان وعندى ... مقول صارم[1] وأنف حمىّ ؟
وإباء محلق بى عن الضـ ... ـيم كما زاغ طائر وحشى
أى عذر له إلى المجد إن ذ ... لّ غلام فى غمده المشرفى ؟
أحمل الضيم فى بلاد الأعادى ... وبمصر الخليفة العلوى ؟
من أبوه أبى ومولاه مولا ... ى إذا ضامنى البعيد القصى
لفّ عرقى بعرقه سيدا النا ... س جميعاً : محمد وعلى

ونلاحظ هنا أن الشريف الرضى ينعت أبناء عمه العباسيين بأنهم أعداء ، وأن بلادهم بلاد الأعادى ، كما نلاحظ مثل ذلك فى قوله سابقاً :

وإن مقام مثلى فى الأعادى ... مقام . البدر تنبحه الكلاب

ولما بلغت الأبيات الباثية مسامع الخليفة العباسى القادر اغتاظ غيظاً شديداً ، وقال حاجبه لوالد الشريف الرضى على لسان الخليفة : قل لولدك محمد — يعنى الشريف الرضى — : أى هو ان قد أقام عليه عندنا ؟ وأى ضيم لقى من جهتنا ؟ وأى ذل أصابه فى ملكنا ؟ وما الذى يعمله معه صاحب مصر لو مضى إليه ؟ أكان يصنع إليه أكثر من صنيعنا ؟ ألم نوله المظالم ؟ ألم نستخلفه على الحرمين والحجاز وجعلناه أمير الحج ؟ فهل كان يحصل له من صاحب مصر أكثر من هذا ؟ ما نظنه كان يكون — لو حصل عنده — إلا واحداً من أبناء الطالبيين بمصر ...

ويروى لنا ابن أبى الحديد بقية القصة قائلا : « إن والد الشريف الرضى قد أنكر هذا الشعر على ابنه قائلا : إنه مما لم نسمعه من ولدنا ولا رأيناه بخطه ، ولا يبعد أن يكون بعض أعدائه قد نحله إياه . وينتهز الخليفة العباسى هذه

(١) المنتظم لابن الجوزى جـ ٧ ص ٣٨١ . وديوان الشريف الرضى جـ ١ ص ١٧ ، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد جـ ١ ص ٣٧ .

الفرصة فيطلب من والد الشاعر إنكار هذه القصيدة وإنكار نسبها إلى الشريف، وإنكار النسب الفاطمى كله !! وعُمل محضر بذلك ليوقعه والد الشريف ويوقعه الشريف الرضى نفسه ؛ فيأبى الشريف توقيعه بحجة أنه يخاف إرهاب دعاة الفاطميين بالعراق ويخشى غيلتهم ... فيعجب أبوه قائلا : أتخاف من بينك وبينهم سمّائة فرسخ ؟ ولا تخاف من بينك وبينه مائة ذراع ؟ وتظاهر والد الشريف وأخوه الشاعر المرتضى بالغضب على الشريف الرضى تقية وخوفاً من القادر وتسكيناً له .

ويروى ابن الجوزى القصة على نحو آخر لا يبعدها عن هذا، مع بعض الاختلاف الذى جاء من رواية ابن أبى الحديد عن أبى الحسن الصابى المؤرخ وولده غرس النعمة . ويذكر ابن الجوزى أن الشريف الرضى حلف لرسولى الخليفة إليه : القاضى أبى بكر وأبى حامد الأسفرائينى أنه لم يقل الشعر المنسوب إليه ولا يعرفه. أما ابن أبى الحديد فيروى أن شاعرنا الشريف أبى أن يسطر خطه فى المحضر . فلما انتهى الأمر إلى القادر سكت على سوء أضمره له ، وبعد ذلك بأيام صرف والده عن النقابة وولى مكانه محمد بن عمر النهر سابسى . وبالطبع صُرف كذلك ولداه الشريف الرضى والشريف المرتضى لأنهما كانا ينوبان عنه. وإذا كان المؤرخون لم يذكروا لنا تاريخ هذه القصة ، فإننا نستظهر أنها كانت سنة ٣٨٤ هـ ، لأنها السنة التى صرف فيها والد الشريف عن نقابة الطالبيين . وبهذا تكون سن الشريف فى هذه الحادثة خمسة وعشرين عاما ...

وقد بلغ من تعليق الشريف الرضى مناط آماله بمصر والخلافة الفاطمية أنه خرج من بغداد مرة قاصداً الكوفة ، فأرجف أناس أنه عزم على المسير إلى مصر . فلما عاد إلى بغداد وبلغه ما أرجف به الناس أراد أن ينفى ذلك بقصيدة تودد فيها إلى الأتراك وبنى بويه — أصحاب الأمر والسلطان فى بغداد — قائلا :

أآل بويه ما نرى الناس غيركم ... ولا نشتكى للخلق لولاكمُ فقدا
وكنت أرى أنى متى شئت دونكم ... وجدت مجازا للمطالب أو معدى

فلم أر لى من مطلع عن بلادكم ولا من مراح للأمانى ولا مغدى !

وبهذا أبعد عن نفسه شبهات كانت تجر عليه من النكبات مالا يطاق معه العيش فى بغداد . . .

وإذا تأملنا قصة طموح الشريف إلى الخلافة ونظرنا إليها بعين الجد والتحقيق ، وجدنا أنها لم تعد أن تكون مجرد أمنيات ومطامح وأحلام يصورها له الشعر ، ويجسدها له الخيال !

وقد أراح أخوه الشريف المرتضى نفسه من هذه الآلام المشقية المضنية ، ورضى بقسمه من الحياة ولم يعنّ نفسه بمطالب لا تحتاج إلى شجاعة اللفظ ، وفخامة القول ، وإغراق المباهاة ، ولكنها تحتاج إلى المال وكان — بحمد الله — فقيراً منه ، وإلى الدهاء ولم يكن صاحبنا داهية ولا باقعة ، وإلى المداورات والمناورات ولم يكن فى خلق صاحبنا شىء من هذا فى قليل ولا كثير ، وإلى الجنود والرجال ولم تكن عين الخليفة العباسى — على ضعفها وعشاها — ولا عيون الأتراك والديلم ، تسمح لمثل الشريف باتخاذهم .

والحق أن الشريف الرضى إذا كان أشقى نفسه زمانًا بتمنى الخلافة فإنه قد أسعدها بلذيذ الأحلام والأمانى ! على حد قول الشاعر :

مُنًى إن تكن حقًّا تكن أعذب المنى وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

وإلا فإن قصائد الشريف الرضى وأشعاره المتحرقة ، وأشعار الصابى ونبوءاته وفراسته ، وأحلام المحيطين بالشريف من منتظرى الفرص لم تكن كافية ولا عندها مركز القوة لتحقيق ذلك الأمل الخطير .

٤ — خلفاء وأمراء ووزراء

عاش الشريف الرضى فى ظل ثلاثة من الخلفاء العباسيين : المطيع والطائع والقادر ، قضى منها أربع سنوات فى عهد المطيع وثمانية عشر عاما . فى ظل

الطائع ، وخمسة وعشرين عاما من مدة حكم القادر .

ولا يذكر الشريف شيئًا عن عهد المطيع لأنه كان طفلا فى ذلك الوقت، وكذلك لا يذكر شيئًا من أوائل حكم الطائع ، أما بعد ذلك فقد بدأ يذكر الطائع وخاصة بعد أن أطلق سراح والده من السجن الذى وضعه فيه عضد الدولة البويهى . وبدأ الشريف يمدح الخليفة الطائع الذى وعد برد أملاك والد الشريف المصادرة إليه ، وحاول أن يتصل به والخليفة يُدل عليه . وما كاد يظفر بأمله من لقائه حتى نكب الطائع نكبته التى أشرنا إليها سابقًا ، وخلع من الخلافة ، وأهين والشاعر يشهد هذه النكبة ويصورها لنا فى شعر جميل .

وجاء الخليفة القادر سنة ٣٨١ هـ ، وحاول الشريف الاتصال به بعد أن أعلن يوم نكبة الطائع أن الذين يلجون أبواب السلاطين على ضلال . . .

ولقد أحس القادر أن شاعرنا كان يتيه ويتدلل عليه لمكانته ومقامه بين الأشراف الطالبيين ، كما أحس بتطلعاته إلى منصب الخلافة العباسية التى كان يرى نفسه أحق بها كما سبق القول .

ولقد مدح الشريف الخليفة القادر وهنأه بتولى الخلافة ، وهى تهنئة لم يكن لها محل بعد النكبة التى منى بها سلفه الطائع . . . وتؤكد لنا هذه المحاولة من الشريف أنه كان يهدف إلى مأرب سياسى ، وأن مدحه للقادر لم يكن إلا من تلك المظاهر المفتعلة التى يتورط فيها الشعراء . ويظهر أن القادر نظر إليه نظرة خاصة حين رآه ينى لسلفه الطائع هذا الوفاء ويُغرق نفسه فى مدائحه ، ثم يعود فيمدحه هو بهذا المدح البالغ . . . والذى نراه أن الشريف كان أليق به أن يطوى نفسه على أحزانها على نكبة الطائع اتعاظًا بما رآه فى حادث خلعه ، وأن يطبق فمه عن مدح خليفة جديد . . .

ونحن لا نقول إن الشريف الرضى كان مرائيًا فى حب الطائع ومدحه — كما قال بعضهم — ولكنه كان مغاليًا فى مدح القادر فى أول عهده بالخلافة وبعد ظروف الطائع المعروفة . .

أما الأمراء البويهيون الذين عرفهم شاعرنا فأولهم عضد الدولة بن بويه الذى

كان سلطانًا على العراق خمس سنوات من سنة ٣٦٧ هـ ، إلى سنة ٣٧٢ هـ . ويحمل له الشريف أسوأ الذكريات لأنه هو الذى قبض على والده نقيب الأشراف سنة ٣٦٩ هـ ، وحبسه فى إحدى القلاع بفارس .

ولم يستطع الشريف أن يصب جام غضبه شعراً على عضد الدولة لأنه كان جريئًا شديد الهيبة ، ولكنه استطاع أن ينفس عن نفسه حين مات عضد الدولة سنة ٣٧٢ هـ، فأرسل إلى أبيه النقيب الموسوى أبياتًا — وهو فى سجنه بالقلعة — يبلغه نبأ موت عدوه ، ولا يظهر الشماتة لأن أولاد بنى بويه بالمرصاد ، ويقول مخاطبًا والده الحسين :

أبلغا عنى الحسين ألوكا ... أن ذا الطود بعد عهدك ساخا

والشهاب الذى اصطليت لظاه ... عكست ضوءه الخطوب فباخا

وثانى أمراء بنى بويه الذين اتصل بهم الشريف هو شرف الدولة الذى ولى العراق من ٣٧٦ — ٣٧٩هـ ، وهو ابن عضد الدولة ،وصاحب الفضل فى الإفراج عن والد الشريف . وقد حفظ له شاعرنا هذا الجميل فمدحه ، وقد ذكرنا فى الفصل الخاص بسيرة حياة الشريف أبياتًا من المدحة اللامية .

وثالث أمراء بنى بويه الذين اتصل بهم الشريف هو بهاء الدولة الذى ولى العراق بعد أخيه شرف الدولة سنة ٣٧٩ هـ ، وقد ذكرنا قبل هذا شيئًا من أخبار هذا الاتصال ؛ وحينما مات سنة ٤٠٣ هـ ، رثاه الشريف بقصيدة مؤثرة يقول فيها :

اليوم صرحت الجلى وقد تركت ... بين الرجاء وبين اليأس معتركا

رزيئة لم تدع شمساً ولا قمرا ... ولا غماماً ، ولا نجماً ، ولا فلكا

لو كان يقبل من مفقودها عوض ... لأنفق المجد فيها كل ما ملكا

وكان من الطبيعى أن تكون للشريف صلات ببعض وزراء ذلك العصر ، فهو من أصحاب السيادة والشرف ، والجاه والمجد ؛ وأول من نذكره منهم

الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة بن ركن الدولة البويهى ، ووزير أخيه فخر الدولة بعد وفاته . وكان ألمع شخصية أدبية فى ذلك العصر، فبعث إليه الملوك والأمراء يطلبونه، وطالما تمنى الشريف لقاء الصاحب ، ولكن أمنيته لم تتحقق . وكان الصاحب — من جهته — معجباً بشعر الشريف الرضى ، مقدراً له ، فأنفذ إلى بغداد من يستنسخه له ، وبلغ الشريف ذلك الإعجاب والطلب لشعره من رجل أديب إمام متذوق ، فمدحه بقصيدة دالية يصف فيها قلم الصاحب بقوله :

لك القلم الماضى الذى لو قرنته بجرى العوالى كان أجرى وأجودا

إذا انسل من عقد البنان حسبته يحوك على القرطاس بردا معمدا

ولكنه طوى المدحة فلم يبعث بها إليه مخافة أن يتهم بمطلب مادى عنده فيستصغره الصاحب . . . ولكنه عاد فمدحه بدالية أخرى أشاد فيها بقيمة القلم والكتابة وغنائهما فى بعض الأحيان غناء السيوف .

وظل الشريف على ولائه للصاحب ومدحه له دون التقائهما . . . إلى أن مات الصاحب سنة ٣٨٥ هـ ، فرثاه الشريف بقصيدة عبر فيها عن تمنيه الدائم للقائه والاجتماع به ، ولكن الموت لم يحقق ذلك فيقول له :

قد كنت آمل أن أراك فأجتنى فضلا إذا غيرى جنى إفضالا

وأفيد سمعك منطقى وغرائبى وتفيدنى أيامك الإقبالا

وثانى الوزراء الذين اتصل بهم الصاحب هو الوزير عبد العزيز بن يوسف الذى توفى بواسط سنة ٣٨٨ هـ . وكان ابن يوسف كاتب الإنشاء لعضد الدولة ، ثم وزر مدة خمسة أشهر لابنه بهاء الدولة، وقد جمع إلى الكتابة الشعر . وكانت صداقته للشريف قوية كما يقال .

ويأتى فى ثبت الوزراء الذين عرفهم الشريف الرضى الوزير الموفق أبو على إسماعيل وزير بهاء الدولة البويهى . وكان شاعرنا قد صاهره على بنته ، ورجا

من وراء تلك المصاهرة خيراً كثيراً — كما تفصح إحدى مدائحه للوزير — ولكن الله شاء أن ينفسخ العقد لأسباب مقدرة فيقول مخاطبًا الصهر الذى كان مرجوًّا :

لقد كنت أرجو أن تكونوا ذرائعى ... إلى غيركم حيث العلا واكتسابها
فهذى المعالى الآن طوعى لأمركم ... وفى يدكم أرسانها ورقابها .
إذا لم أرد فى عزكم طلب العلا ... ففى عِز منْ يجدى علىَّ طلابها؟

ويعترض تاريخ الشريف الرضى مع الوزراء اسم الوزير المطهر بن عبد الله وزير عضد الدولة بن بويه ، وكان شرسًا خبيث الخلق سيئ الفكر كما يذكر مسكويه المؤرخ ، وهو الذى واجه والد الشريف سنة ٣٦٩ هـ ، — حينما صدر أمر عضد الدولة بالقبض عليه — بهذه العبارة الجارحة : «كم تُدل علينا بالعظام النخرة ؟! » يعنى عظام أجداده الأئمة الأشراف . فغضب الشريف لهذه الإهانة التى لحقت أباه ، وكانت سنه فى العاشرة ، فرد على الوزير بقصيدة دالية طويلة النفس ، عارمة الثورة ، قوية النسج ، على الرغم من أنها قصيدة غلام لم يطر بعد شاربه . وفيها يقول :

وطاغ يعير البغى غرب لسانه ... وليس له من جانب الحق ذائد
شننتَ عليه الحق حتى رددته ... صموتا وفى أنيابه القول راقد
يُدلّ بغير الله عضدا[1] وناصرا ... وناصرك الرحمن والمجد عاضد

ويشاء الله فى سنة ٣٦٩ هـ ، أن يموت الوزير المطهر منتحراً بأن أخذ سكينًا[2] وقطع بها شرايين يده ، لهزيمته فى محاربة أحد الخارجين على الدولة

---

(١) يلاحظ هنا تعريض الشريف الرضى باسم عضد الدولة صاحب نكبة أبيه . والمخاطب هنا هو والد الشاعر .

(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٧ ص ٩٩ ، حوادث سنة ٣٦٩ هـ .

بالبطيحة ، وهنا نجد الشريف — وهو ما يزال مجروح القلب بسجن والده ومصادرة أملاكه — يمدح والده فى محبسه ، ويعرج على موت الوزير البغيض معرضًا به ؛ قائلا يخاطب أباه :

وجبان لويت عنه فأمسى وجل العين من قراع الرقاد
مستطيرًا كأن أهداب جفنـ ـيه على الناظرين شوك القتاد
لا أقال الإله من خانك العهـ ـد وجازاك بغضةً بالوداد
قصر الدهر من ذراه وقد كان بتلك الظبى طويل النجاد
وأذل الزمان بعدك عطفـ ـيه ، وقد كان من أعز العباد

وهذه الشماتة الصارخة لا تعيب خلق الشريف الرضى ، لأن إهانة «المطهر» لوالده النقيب ولأجداده الطاهرين من الأئمة لا يغسلها إلا مثل تلك الشماتة . . .

وهنا نصحح وهمًا تاريخيًّا وقع فيه المرحوم زكى مبارك ، فقد ذكر أن وفاة الوزير[1] كانت سنة ٣٧٦ هـ ، والصواب أنها كانت سنة ٣٦٩ هـ ، كما تذكر كل المراجع التاريخية ، ولأن عضد الدولة — الذى انتحر الوزير خوفًا منه — كان قد توفى سنة ٣٧٢ هـ ، أى قبل التاريخ الذى ذكره الدكتور المبارك .

٥ — أقارب وأصدقاء

قليل هم الشعراء فى العربية الذين صوروا لنا الصداقة فى أجلى صورها ، وأوضحوا لنا معالمها وحدودها ، ووصفوا لنا الصديق الحق الذى يعول عليه فى الشدة ، ويؤتنس به فى الرخاء ، ويحفظ الغيبة ، ويحرص على حبل المودة أن ينقطع ، ويغفر إساءة الصديق ، ويجيب دعوته ، ويحتال له العذر إذا زل ، ويهديه فى رفق إذا ضل .

---

(١) عبقرية الشريف الرضى جـ ١ ص ١٤١ — ١٤٢ .

ولم يكتف الشريف الرضى بأن يكون واحداً من شعراء القلة الذين صوروا الصداقة على حقيقتها بالأقوال . ولكنه كان فى سلوكه العملى مع أصدقائه نموذجاً للمبادئ السامية التى وضعها للأصدقاء . والشريف فى صداقته لا يفرق بين مذهب ومذهب ، أو دين ودين ، أو منحى فى الحياة ومنحى . فأبو إسحاق الصابى صديقه الحميم على الرغم من دينه الصابئى ، وعلى الرغم — فوق هذا — من فارق السن بينهما .

ولقد جمعت بين الرجلين المشاركة فى المحنة والنكبة من ناكب واحد . فعضد الدولة البويهى الذى نكب والد الشريف وحبسه بضع سنين ، هو بعينه الذى سخط على الصابى كاتبه وعزم على إلقائه تحت أرجل الفيلة ليصرع ، لولا أن بعض الطيبين شفعوا فيه فأطلق سنة ٣٦٧ هـ ، ولكن صدرت أمواله .

والحسين بن حجاج — من كبار شعراء الشيعة كما يقول ياقوت[1] — كان صديقاً للشريف الرضى على الرغم من اختلاف مزاجيهما . . . فابن حجاج هازل ماجن ، والشريف الرضى جاد وقور . . . وقد بلغ من إعجاب الشريف بصاحبه وبشعره أنه اختار ما استجاده من أشعاره وجمعه فى كتاب أسماه : (الحسن من شعر الحسين) ، ورتبه على حروف المعجم ، ونشره فى حياة ابن حجاج الذى حفظ له الصنيع فسجله بشعر يقول فيه :

أتعرف شعرى إلى من ضوى ... فأضحى على ملكه يحتوى ؟
إلى البدر حسنا ، إلى سيدى ... الشريف أبى الحسن الموسوى
إلى من أعوذه كلما ... تلقيته بالعزيز القوى ... !

وأحمد بن على البتّى الكاتب — المتوفى سنة ٤٠٣هـ ، أو سنة ٤٠٥هـ[2] كان من خلصان الشريف وأوفى أصدقائه على الرغم من ميله الشديد إلى الظرف

---

(١) الغدير جـ ٤ ص ٨٠ .

(٢) انظر فى هذا الخلاف بين التاريخين : ديوان الشريف الرضى ص ٤٠٦ ، والمنتظم جـ ٧ ص ٢٦٣ ، وابن الأثير ، وابن كثير .

والتماجن والنوادر[١].

وللشريف شعر كثير فى مغفرة ذنوب الأصدقاء وعدم مقابلة إساءتهم بالمثل فيقول مرة :

وإنى وإن والى على القلب حربه ... لمنتظر أن يعقب الحرب سلمه
ولا تيأسن من عفو حر ، فإنما ... تحلمه باق إذا ضاع حلمه !

فهو يصطنع التحلم على الصديق المسىء إذا لم يسعفه الحلم . . . ويقول أخرى :

فلأجعلن عقوبتى أبدا ... أن لا أمد يدى إلى أحد
فتكون أول زلة سبقت ... منى ، وآخرها إلى الأبد !

ويحس الشريف من نفسه بأنه نموذج للصديق الطيب المؤنس ، فيقول :

على أننى تحفة للصديق ... يروح بنجواى أو يغتدى
وإنى ليأنس بى الزائرو ... ن أنس النواظر بالإثمد

ويحرص على حبل الود أن ينقطع ، فيقول :

لقد كنتُ شديد الضنِّ ... أن ينقطع الحبل
وأن ينصدع الشعب الذ ... ى لوثم والشمل . . .

ويحرص على استبقاء الصديق على القذى ، كالعضو يبقيه الطبيب على دائه ، فيقول :

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه ... أبى بعد طول الغمز أن يتقوّما
كعضو رمت فيه الليالى بقادح ... ومن حمل العضو الأليم تألما
صبرت على إيلامه خوف نقصه ... ومن لام من لا يرعوى كان ألوما

---

(١) ابن الجوزى جـ ٧ ص ٢٦٣ .

ويتحرق شوقًا إلى صديق الشدة والمحنة ، لا صديق النعمة والرخاء ، فيقول :

قــلَّ الصحاب فإن ظفر ت بنعمة كثر الصحاب
من لى به سمحاً إذا صفرت من القوم الوطاب؟!
من لى به يا دهر والأَّ يام حالكة غضاب ؟

ويصور شعوره نحو الصديق بقوله :

يهشُّ لكم على العرفان قلبى هشاشته إلى الزور[1] الغريب
وألفظ غيركم ، ويسوغ عندى وداد كم مع الماء الشروب
ويسلس فى أكفكم زمامى ويعسو[2] عند غيركم قضيبى
ولى شوق إليك أعلَّ قلبى ومالى غير قربك من طبيب

ويعنف أصدقاءه الذين سمحوا لأنفسهم أن يُغتاب شاعرنا فى مجالسهم ، ويندب الصديق الذى يحفظ غيب صديقه ، فيقول :

ما رقَّع الواشون فىَّ ولفقــوا قل لى فإما حاسد أو مشفق
فى كل يوم ظهر دارى مغرب لكلامهم ، وجبين دارك مشرق
من لى بمن إن بان عيب خليله غطاه من شانيه أو من يصدق ؟!

وكان الشريف يسر كل السرور باجتماع الأصدقاء ويأنس بلقائهم ، ويلتذ بأحاديثهم ويرى اغتنامها غنيمة من الدهر ، فيقول فى أحد مجالسه :

أحاديث تستدعى الوقور إلى الصبا وتكسو حليم القوم ثوب غرام
فنضحى لها طربى بغير ترنم ونمسى لها سكرى بغير مدام
تعالوا نولَّ اللائمين تصاممًا ونعص على الأيام كل ملام

---

(١) الزور ، بفتح الزاى : جماعة الزائرين .
(٢) يعسو : يبس ويجف .

ونغتنم الأوقات إن بقاءهـا كمر غمام ، أو كحلم منام..

ويتوق الشريف أسباب العداوة بين الناس ، ويرى أن الناس أعداء ذى المال والجاه ، ويدعو إلى مداراة الأعداء صيانة للنفس وبقيا عليها ، ويرى أن العداوة بين الناس شر لا بد منه ، فيقول :

تجاف عن الأعداء بقيا فربما كفيت ولم تعقر بناب ولا ظفر
ولا تَبْر منهم كل عود تخافه فإن الأعادى ينبتون مع الدهر
إذا شئت أن تبقى خليا من العدا فعش عيش خال من علاء ومن وفر

و يحذرنا معاداة الرجال ومباغضتهم ، لأنها تجرح وتطيل فينا ألسن العائبين ؛ فيقول :

احذر مباغضة الرجال ، فإنها تدمى ، وتُقدر أن يقول العائب

أما الأقارب فقد لقى الشريف منهم بعض ما لم يكن يرجوه ، ولعل ما بين العباسيين والعلويين من حزازات النفوس كان له أثر فى نفسه وفى بعض شعره ، فى قصيدته إلى والده التى يهنئه فيها بعودة مناصبه إليه يقول :

عَجِل الزمان بها إليك وحطمت بين الضلوع ضغائن وحقود
قد كنت أخشى أن يقول مخبرٌ كادوا ، وما أعطوا المراد فكيدوا
أو أن يقال : أقارب نزعت بهم ظُنن[1] ، فكل بالعقوق بعيد

وكان يرى أن تقطع وشيجة القرابة إذا أشر الأقرباء ، فيقول :

إذا أشر القريب عليك فاقطع بحد السيف قربى الأقرباء

ويرى أن الشدة مع الأقارب ضرورية إذا لم ينفع اللين ، فيقول مخاطبًا بعض أبناء عمه :

---

(١) الظنن : جمع ظنة وهى التهمة .

وقل لبنى لعمنا الواجــدين بنى عمنا ! بعضَ هذا الغضب
ولما أرنتم[١] إران الجموح ومــاج بكم حبلكم واضطرب
أقمنا أنابيبكم[٢] بالثقاف وداوى الهناء مطال الجرب
ويا ربمــا عاد سوء العقاب على المذنبين بحسن الأدب

إلا أنه لا يرى دائمًا معاقبة الجانين من أقاربه ، ولكنه يستمسك بهم وإن قلوا :

وإنى — وإن قلوا — لمستمسك بهم وقد تمسك الساق المهيض الجبائر ؟

ويعود على عقوقهم بالحلم ، فيقول :

بنى عمى ! وعزَّ على يمينى من الضراء ما لقيت شمالى
أعود على عقوقكم بحلمى إذا خطر العقوق لكم ببالى

ولكنه إذا طفح به الكيل منهم يزايله الحلم أو التحلم . فيلجأ إلى تهديدهم قائلا :

هَبُوا أصولكمُ أصلى على مضض ما تصنعون بأخلاق تنافينى ؟
كم الهوان ؟ كأنى بينكم جمل فى كل يوم قطيع الذل يحدونى ؟!
لا تأمنن عدوًّا لان جانبه خشونة الصلِّ عقبى ذلك اللين

وحين نبلغ هذا المبلغ تعرض لنا علاقة الشريف الرضى بأخيه المرتضى . وقد كانا على أحسن ما يكون بين الأخوة المتحابين المتوادين ، وكثيراً ما مدح الرضى — وهو أصغر الشقيقين — أخاه الأكبر المرتضى بقصائد جيدة . ولكن هذه العلاقة الأخوية الطيبة قد عرض لها يومًا ما غبَّر وجهها ، فنرى الأخوين

(١) الأران : شدة النشاط وفورته .

(٢) الأنابيب : كعوب الرماح ، والثقاف هو تسوية الرماح وتثقيفها ، والهناء بكسر الهاء : القطران الذى تطلى به الإبل المصابة بالجرب .

يتعاتبان بشعر عاطفى مؤثر ؛ فيقول المرتضى لأخيه :

وقد غاض سخطانا ،فهل من صبابة برأيك ، إنى قد تصرم ما عندى ؟
هلم نُعد صفو الوداد كما بدا إعادة من لم يُلْف عن ذاك من بُد
ومثلك أهدى أن يعاد إلى الهدى وأرشد أن ينحاز عن جهة القصد!

هذا والله كلام جميل يرقق القلب ، ويجدد الحب، ويستعيد الود ، ويحتم على الأخ الأصغر أن يذعن ويطامن من كبريائه .

ولكن الرضى كان يضيق بعض الحين بأقاربه وبشقيقه المرتضى ، فينفس عن صدره بمثل قوله :

كفى حَزَنا أنى صديق مصادق ومالى من بين الأنام صديق
فكيف أريغ الأبعدين بخلة وهذا قريب غادر وشقيق ؟

وقد يعرّض أحيانًا بالأشقاء ، فحين يرثى أستاذه وصديقه « ابن جنى » النحوى يصفه بأنه شقيقه فيقول :

شقيق إذا التاث الشقيق وأعرضت خلائق قومى جانباً عن خلائق

ويظهر أن السبب فيما عرض بينه وبين أخيه المرتضى هو ما بلغه من أن أخاه لم يذكره بالخير فى أحد مجالسه، وما أحفل ما كانت مجالس المرتضى ! وأنه لذعه بالكلم العوراء ، فتغيرت نفسه على أخيه ونظم قصيدة ضادية قاسية، يقول فيها :

ومولى وَرَى قلبى بلذعة ميسم من الكَلِم العوراء مضًّا على مض
فعذرًا لأعدائى إذا كان أقربى يشذب من عودى، ويُعْرِق من لحمى[1]

ومن عجب أن تسوء العلاقة بين أخوين شقيقين من أهل البيت ، فأبوهما واحد ، وأمهما واحدة . ولكن فى هذا دليلا على النفس البشرية التى يقلبها مقلب القلوب ، فلا تمنعها أخوّة ، ولا يعصمها شرف الأبوة .

---

(١) يعرق من لحمى : يأكل من لحمى أكلا بالغا .

٦ ـ ملامح خلقية

جمع الشريف الرضى حفنة كريمة من كرائم الخلال ، وقد جمله الله بالأدب النبوى الرفيع فجرى على عرق آبائه الأطهار . وأول ما يلفت نظرنا من أخلاقه هو تلك الخشية من الله ومراقبته فى قوله وفعله مع التدين والتصون ؛ فقد اشترى مرة من امرأة جزازاً بخمسة دراهم ، فوجد فيه جزءاً بخط على بن مقلة ، فقال للدلال الذى عقد له الصفقة : أحضر لى المرأة ، فحضرت ، فأراها ما فى الجزاز من مخطوط ابن مقلة ، وعرض عليها رده ـ لأنه ليس من حقه ـ أو بيعه له ، فقبلت بيعه[1] وأخذت ثمنه .

وكان فى صاحبنا وفاء نادر وعرفان بالجميل حتى فى أحرج المواقف ؛ فقد مدح ابن جنى ـ أستاذه ـ ورثاه عرفاناً بجميله ، وكذلك مدح الصاحب بن عباد ورثاه ، ومدح شرف الدولة بن بويه لموقفه النبيل من إطلاق سراح والده من الحبس فى فارس . ولا ننسى وفاءه للخليفة الطائع المعزول ؛ فقد ظل على وفائه له حتى بعد عزله ، ولما مات وهو مجرد من جاه الخلافة رثاه بقصائد لم يخش فيها غضب الخليفة القادر . ويعبر فى أولاها عن منة الطائع عنده وعدم نسيانه لها ، فيقول :

إن للطائع عندى منة ... وحمًى قد بلها لى ببلالى
ليس يُنْسِيها وإن طال المدى ... مرُّ أيام عليها وليالى
فاتنى منك انتصار بيمينى ... فتلافيت انتصارا بمقالى

وهو يشير فى البيت الأخير إلى حادث جذبه إلى الأرض وسحبه من سرير الملك وخلعه ، وكان الشاعر حاضرهُ . ويتجلى وفاؤه فى كثرة مراثيه لأصدقائه أكثر من مرة ، فلا يكتفى بالمرثية الواحدة لميت ، حتى ليصح

---

(١) المنتظم جـ ٧ ص ٢٧٩ .

أن نسميه شاعر الدموع ؛ فقد رثى صديقه الصابى أكثر من مرة بقصائد دالية وفائية ويائية، ورثى أحبابه مرات ومرات ، كأن عينه — الدهر — موكلة ببكائهم ، مما يدل على أنه يصل معارفه بالذكرى والحنين . . . وكان شجاع القلب فى وفائه، فلا يبالى أن يغضب الناس برثائه لميت غضبت عليه السياسة ، أو تألبت عليه الجماهير ... ويحضرنا فى هذا رثاؤه لابن شاهويه زعيم القرامطة فى بغداد، فقد رثاه بقصيدة مؤثرة — لأنه كان صديقه — على الرغم من أنه لم يشهد جنازته ببغداد إلا ثلاثة رجال فقط أحدهم الشريف . . .

وكان فى الشريف أنفة وإباء وترفع انحدرت إليه من أصلاب آبائه الطاهرين ، وظاهرتهما طبيعة نفسية عيوف . . . وتمثل أبياته القافية للخليفة القادر الواردة فى ص ٢٢، ٢٣ هذه الناحية ،وقد وهم الدكتور زكى مبارك فزعم أن هذه الأبيات قيلت للطائع ، وهو غير صحيح . وهذه النفس الأبية تعالت عن أن تقبل مذلة من الزمان كما يقول :

فو الله لا ألقى الزمان بذلة ولو حطّ فى فودىّ أمضى غروبه
قنعت ، فعندى كل ملك نُزوله عن العز والعلياء مثل ركوبه

وبلغ من أنفة الشريف أنه لم يقبل صلة من أحد ، ولم يقبل برًّا من إنسان ؛ إلا ما كان من حادثة الدار التى أهداها إليه معلمه إبراهيم الطبرى ، وقد قبلها على مضض ، لأن أستاذه أفحمه — وهو غلام — وقال له : إن حقى عليك أعظم من حق أبيك عليك . وكان شاعرنا قد اعتذر من عدم قبول الدار لأنه لم يقبل فى حياته شيئًا حتى من أبيه . . .

وتصور لنا حادثة الغلام الذى وُلد له جانبَ عفته وإبائه وترفعه عن قبول شىء من إنسان ، فقد حكى الوزير فخر الملك محمد بن خلف وزير بهاء الدولة البويهى أنه اتصل به أنه ولد للشريف الرضى ولد ، فبعث إليه ألف دينار قائلا إنها للقابلة — أى الداية — على ما جرى به العرف بين الأصدقاء ، فردها الشريف ومعها اعتذار لطيف من عدم القبول للمال يقول فيه : إننا أهل بيت

لا يطلع على أحوالنا قابلة غريبة . . . وإنما عجائز بيتنا يتولين هذا الأمر — يعنى التوليد — من نسائنا . . . ولسن من يأخذن أجرة ، ولا يقبلن صلة[1] . . وتمتزج الأنفة هنا بقناعة النفس ونزاهة المطلب كما فى البيتين السابقين .

وقد عف لسان الشريف عن هجر القول كما عفت يده ونفسه عن العرض الزائل . وقد عبر عن هذه العفة اللسانية بقوله :

كفى الذى سبنى أنى صبرت له ... فاستنصر العذر واستحيا من الجرم
بردى عفيف إذا غيرى لفجرته ... كانت مناسج برديه على التهم
إذا العدو عصانى خاف حدّ يدى ... وعرضه آمن من هاجرات فمى

ومن هنا جاء حرصه البالغ على سمعته ، وضنه بعرضه أن يثلمه غيره ، وقد كان مركزه ومركز والده النقيب ومركز بيته الشريف تحتم عليه هذا الجو الحريص الذى عاش فيه . والحق أن حالة العراق فى عصره ، وجوه السياسى المتقلب الخانق ، وأخذ الناس فيه بالظنة كانت تحتم عليه الحرص والحذر فى كل شىء .

ومن مواريث الشريف الرضى الخلقية ، ذلك التسامح ، واتساع الأفق ، والبعد عن التعصب الدينى والمذهبى وهى مما ورثه عن أبيه ، فقد كان أبوه — غالبًا — واسطة خير فى الخلافات التى تقوم بين السنة والشيعة فى بغداد . ولما اختلف الملكان الأخوان : بهاء الدولة وصمصام الدولة ابنا بويه سافر والد الشريف الرضى إلى فارس ليصلح بينهما .

ولم نلحظ فيما كتبه الرضى أو نظمه أثراً لتعصب ممقوت بين الشيعة والسنة ، أو حتى بين الطالبيين والعباسيين . ولم نجد فيه شدة إلا حين تحدث فى كتابه « المجازات النبوية » عن حسان بن ثابت شاعر الرسول ، فحين أخذ يكشف عن وجوه المجاز فى قوله صلى الله عليه وسلم : (حسان حجاز بين المؤمنين والمنافقين ، لا يحبه منافق ، ولا يبغضه مؤمن) بدأ يقول مُعقبًا : (وهذا الكلام عندنا فى

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد جـ ١ ، وديوان الشريف الرضى ص ١٨ .

حسان متعلق بوقت مخصوص ، وهو زمن النبي صلى الله عليه وسلم وآله ، فأما حين ظاهر أمير المؤمنين عليه السلام — يعني عليًّا — بعداوته ، ورماه بمعاريض القول فى أشعاره ، فقد خرج من أن يكون حجازاً بين الإيمان والنفاق ، وتحيز إلى جانب النقمة والضلال . . .)

وقد ظهرت أخلاق الرضى حينما فُوض إليه النظر فى أعمال والده بعد وفاته ، وكان منها تولى شئون الطالبيين . وهنا نراه رجل الدين الجاد المتشبث بالحق ، المنفذ للأحكام ، غير المتهاون فى تطبيقها . فقد جاءته امرأة علوية تشكو إليه زوجها ، وأنه يقامر بما يتحصل له من حرفة يمتهنها ، على الرغم من أنه ذو عيال ومكثر ، وشهد لها من حضر بالصدق ، فاستحضر الشريف زوجها وأمر به فبطح وضرب ، والزوجة تنظر إليه وتنتظر أن يكف عن الضرب اكتفاء بما نال منه ، ولكن الأمر زاد حتى بلغ مائة ضربة ! فخافت المرأة على زوجها أن يموت من الضرب وصاحت بالشريف قائلة : أرأيتم أولادى ؟ كيف تكون صورتنا إذا مات ؟! فزجرها الشريف قائلا : أظننت أنك كنت تشكينه للمعلم ؟!

ولقد ظلم الدكتور زكى مبارك شاعرنا الرضى حين اتهمه[1] بأنه (يسترخص كل شىء فى سبيل المجد ، ويستبيح اشتراء المناصب) ، وما بلغ الجور فى حكم على شاعر كما بلغ هذا الحكم على الشريف . فسلوك الشريف وسيرته وحوادثه مع الخلفاء والملوك تؤكد لنا أنه لم يكن انتهازيًّا ولا مستبيحًا لشراء المناصب ، ولو كان كذلك لبلغ منصب الخلافة الذى كان يطمح إليه من أهون سبيل ، ولكنه كان رجلا مجاملا ملاينًا ، ولم يكن داهية مداورا ، ولو كانه لما عزت عليه الخلافة التى ظل يحلم بها عمره . إنه كان رجل أحلام وآمال ، وأوهام وخيال ، وذلك سر إخفاقه ، ولم يكن صاحب عقلية سياسية كما يقول الدكتور زكى مبارك ، وإلا لما منى بهذا الحرمان من جاه السلطان الذى عاناه طول حياته . . .

---

(١) عبقرية الشريف الرضى جـ ١ ص ١٩٠ .

٧ ـ دموع الشعراء

لم يبلغنا ـ فيما لدينا من مصادر كثيرة ـ إلا شعر الشعراء الثلاثة الذين رثوا الشريف الرضى يوم وفاته سنة ٤٠٦ هـ . وقد تكشف الأيام عن شعراء آخرين رثوا الشريف . وإلا فلماذا سكت عن رثائه الشعراء المعاصرون له والذين ـ لا شك ـ تأثروا لوفاته من أمثال أبى العلاء المعرى ، والثعالبي صاحب يتيمة الدهر ، وصريع الدلاء وغيرهم .

وقد ذكر الأستاذ الجليل العلامة الشيخ عبد الحسين أحمد صاحب « الغدير »[1] أن المعرى رثى الشريف بقصيدة تناهز ٥٥ بيتاً ، ومطلعها :

أودى فليت الحادثات كفافِ مال المسيف وعنبرُ المستافِ

ولكن الصواب أن هذه القصيدة هى للمعرى فى رثاء والد الشريف . والحق أن هذا الوهم الذى نصححه يجعلنا نتساءل : لماذا لم يرث المعرى شاعرنا الرضى مع أنه لقيه فى بغداد حين رحل إليها كما لقى أخاه المرتضى ؟ وإذا صح ما ذُكر عن الحادث الذى وقع لأبى العلاء فى مجلس المرتضى[2] أخى الشريف الرضى ، فليس هذا مسوغاً لأن يغفل المعرى واجبه فى رثاء الرضى ، عملا بقوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) . وقد مدح المعرى ـ فى مرثيته للوالد ـ الولدين بقوله فيهما :

أبقيت فينا كوكبين سناهما فى الصبح والظلماء ليس بخاف
متأنقين ، وفى المكارم أرتعا متألقين بسؤدد وعفاف
قدرين فى الإرداء ، بل مطرين فى الإجداء ، بل قمرين فى الأسداف

وأول من رثى الرضى من الشعراء الثلاثة أخوه الشريف المرتضى، وقد عبر فيها عن فجيعته فى شقيقه أصدق تعبير ، وفيها يقول مُتمنياً أن يكون الخبر اليقين كاذباً :

---

(١) الغدير جـ ٤ ص ١٨٧ .
(٢) تجديد ذكرى أبى العلاء لطه حسين ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .

يا صاحبي ! هل ناب سمعك مثلما قد نابنى نبأ أطار نعاسى ؟
لا أرتضى منه وضوح يقينه وأود أنى منه فى إلباس
أنحى على كبدى بوشك سماعه نارا تحز جنوبها بمواسى
وظننته مثلَ الرزايا قبله فإذا به رزءا عزيز الآسى

أما الوزير المغربى فقد رثاه بقصيدة كان « الصفدى »[1]، المؤرخ صاحب الفضل فى هدايتنا إلى نصف مطلعها وإلى بعض أبيات منها ، وشطر المطلع هو : « رزء أغار به النعى وأنجدا » ، والأبيات المروية هى :

أذكرتنـــا يا ابن النبي محمد يوماً طوى عنى أباك محمدا
ولقد عرفت الدهر قبلك ساليا إلا عليك فما أطاق تجلدا
ما زلت نصل الدهر يأكل غمده حتى رأيتك فى حشاه مغمدا

والوزير المغربى هو أبو القاسم الحسين المصرى المولد الذى اشتهر بإحاطته بالعلوم ، كما اشتهر بكتابه فى السياسة وتوفى سنة ٤١٨ هـ . ولقد أضنانا التعب فى العثور على المصدر الذى نقل عنه الصفدى هذه الأبيات من المرثية فلم نهتد إليه .

وثالث الشعراء الذين رثوا الشريف الرضى هو الشاعر مهيار الديلمى . ويذكر المؤرخون أنه كان مجوسيًّا فأسلم على يد الشريف الرضى الذى كان شيخه وأستاذه فى نظم الشعر . وقد رثاه بقصيدتين : أولاهما الميمية التى مطلعها :

من جبِّ غارب هاشم وسنامها ولوى « لؤيا » فاستزل مقامها ؟

ولما استكثر الناس هذه المرثية على الشريف من مهيار أتبعها بثانية دالية يلوّح فيها بذكر حاسدى الشريف ، ويزيد فى غيظهم ، وقد بلغت أبياتها — كما فى ديوان مهيار — واحداً وستين بيتًا ، ومطلعها :

أقريش ؟ لا لفم أراك ، ولا يد فتواكلى ! غاض النَّدَى، وخلا الندى

---

(١) الوافى بالوفيات ج ٢ ص ٣٧٩ .